٢ - رسالة في معرفة النفس الناطقة وأحوالها

[نشر هذه الرسالة الدكتور محمد ثابت الفندى ، بمطبعة الاعتماد ، وكتب عليها أنها الطبعة الثانية ، وليس على الرسالة تاريخ النشر ، وأرجح أنه عام ١٩٣٤ م وقدم للرسالة بمقدمة وجيزة ، ذكر فيها أنه رجع إلى ثلاث نسخ خطية ، اثنتان منها عن مكتبة طلعت ، والثالثة عن برلين . ورمز للنسخ بالحروف ب ، ح ، ى . وقد أعدنا نشر الرسالة دون الرجوع إلى الاختلافات ، مرجحين قراءتنا الخاصة] .

رسالة

فى معرفة النفس الناطقة وأحوالها

لأبى على بن سينا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى لا يخيّب من بابه آمل ، ولا يحرم عن جنابه عامل ، ولا يحجُب العارفين عن ورود مناهل مشاهدة أنوار جلاله مانع وحائل ، ولم يمنع المشتاقين للقائه عن الصعود من حضيض الفراق إلى أوج الوصال ناقص أو كامل ؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة من أخلص لمشاهدة جلاله سره ، وعرض فى منازل التوحيد على أعين النظار سيره ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذى عقد على أجياد أرواح الأبرار قلائد الأسرار ، فصلوات الله عليه وعلى آله الأخيار . و بعد فهذه رسالة حررتها فى علم النفس ، وجعلتها ثلاثة فصول :

الفصل الأول : فى إثبات أن جوهر النفس مغاير لجوهر البدن .

الفصل الثانى : فى بقاء النفس بعد فناء البدن .

الفصل الثالث : فى مراتب النفوس فى السعادة والشقاوة بعد مفارقة النفس عن البدن .

ثم ألحقت بها خاتمة أذكر فيها العوالم الثلاثة التى هى عالم العقل ، وعالم النفس ، وعالم الجسم ، وترتيب الوجود من لدن الحق الأول إلى أقصى مراتب الموجودات على الترتيب النازل من عنده تعالى ، ليكون الناظر فى هذه الرسالة مطلعاً على جمل من أجناس المخلوقات وشطر

من أنواعهـا ، فأهديت هذه الرسالة التى هى مشتملة على أهم المطالب: وهو معرفة الإنسان نفسه ومايؤول إليه حاله بعد الارتقاء . وأيضا فإن معرفة النفس مرقاة إلى معرفة الرب تعالى، كما أشار إليه قائل الحق بقوله : « من عرف نفسه فقد عرف ربه » . ولو كان المراد بالنفس فى هـذا الحديث هو هـذا الجسم لكان كل أحد عارفا بربه ، أعنى خصوص معرفته ، وليس كذلك ، فهذه الرسالة تهديك إلى الأسرار المخزونة فى عالم النفس الذى غفل عنه الدهماء من الناس، بل أكثر العلماء عنه غافلون . ولهذا أوحى إلى رسول الله لما سئل عن حقيقة الروح « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى » ثم قال عقيبه : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » تنبيها على أكثر النـاس عن النفس وحقيقة الروح . فهذا هو الإشارة المختصرة إلى فوائد هذه الرسالة .

فلنشرع فيما ذكر من الفصول بتوفيق الله وحسن هدايته .

الفصل الأول

فى إثبات أن جوهر النفس مغاير لجوهر البدن

فنقول : المراد بالنفس مايشير إليه كل أحد بقوله « أنا » . وقد اختلف أهل العلم فى أن المشار إليه بهذا اللفظ هو هذا البدن المشاهد المحسوس أو غيره . أما الأول فقد ظن أكثر الناس وكثير من المتكلمين أن الإنسان هو هذا البدن ، وكل أحد فإنما يشير إليه بقوله « أنا » ، فهذا ظن فاسد لما سنبينه . والقائلون بأنه غير هذا البدن المحسوس اختلفوا : فمنهم من قال إنه غير جسم ولا جسمانى ، بل هو جوهر روحانى فاض على هذا القالب وأحياه ، واتخذه آلة فى اكتساب المعارف والعلوم ، حتى يستكمل جوهره بها ، ويصير عارفاً بربه ، عالماً بحقائق معلوماته ، فيستعد بذلك للرجوع إلى حضرته ، ويصير ملكا من ملائكته فى سعادة لانهاية لها ؛ وهذا هو مذهب الحكماء الإلهيين والعلماء الربانيين . ووافقهم فى ذلك جماعة من أرباب الرياضة وأصحاب المكاشفة ، فإنهم شاهدوا جواهر أنفسهم عند انسلاخهم عن أبدانهم واتصالهم بالأنوار الإلهيـة ؛ ولنا فى صحة هذا المذهب من حيث البحث والنظر براهين .

البرهان الأول :

تأمل أيها العاقل فى أنك اليوم فى نفسك هو الذى كان موجوداً جميع عمرك حتى إنك تتذكر كثيراً مما جرى من أحوالك ، فأنت إذن ثابت مستمر لاشك فى ذلك ، وبدنك وأجزاؤه ليس ثابتا مستمراً ، بل هو أبدا فى التحلل والانتقاص . ولهـذا يحتاج الإنسان إلى الغذاء بدل ما تحلل من بدنه ، فإن البدن حار رطب ، والحار إذا أثر فى الرطب تحلل جوهر حتى فنى بكليته ، كما لو يوقد عليه النار دائما فإنه ينحل إلى أن لا يبقى منه شىء ؛ ولهذا لو

حبس عن الإنسان الغذاء مدة قليلة نزل وانتقص قريب من ربع بدنه . فتعلم نفسك أن فى مدة عشرين سنة لم يبق شيء من أجزاء بدنك ، وأنت تعلم بقاء ذاتك فى هذه المدة ، بل جميع عمرك ، فذاتك مغايرة لهذا البدن وأجزائه الظاهرة والباطنة . فهذا برهان عظيم يفتح لنا باب الغيب ، فإن جوهر النفس غائب عن الحواس والأوهام . فمن تحقق عنده هذا البرهان وتصوره فى نفسه تصورا حقيقياً فقد أدرك ماغاب عن غيره .

البرهان الثانى :

هو أن الإنسان إذا كان متهماً فى أمر من الأمور فإنه يستحضر ذاته حتى إنه يقول: إنى فعلت كذا أو فعلت كذا ، وفى مثل هذه الحالة يكون غافلا عن جميع أجزاء بدنه ؛ والمعلوم بالفعل غير ماهو مغفول عنه ، فذات الإنسان مغايرة للبدن .

البرهان الثالث :

هو أن الإنسان يقول : أدركت الشيء الفلانى ببصرى فاشتهيته ، أو غضبت منه ، وكذا يقول:أخذت بيدى، ومشيت برجلى،وتكلمت بلسانى ، وسمعت بأذنى ، وتفكرت فى كذا وتوهمته وتخيلته ؛ فنحن نعلم بالضرورة أن فى الإنسان شيئا جامعا يجمع هذه الإدراكات ويجمع هذه الأفعال ، ونعلم أيضاً بالضرورة أنه ليس شيء من أجزاء هذا البدن مجمعاً لهذه الإدركات والأفعال ، فإنه لايبصر بالأذن ولايسمع بالبصر ولايمشى باليد ولا يأخذ بالرجل، ففيه شيء مجمع لجميع الإدراكات والأفاعيل الإلهية ، فإذن الإنسان الذى يشير إلى نفسه بـ « أنا » مغاير لجملة أجزاء البدن ، فهو شيء وراء البدن . ثم تقول: إن هذا الشيء الذى إنه هوية الإنسان ومغاير لهذه الجثة لايمكن أن يكون جسما ولا جسمانياً ، لأنه لو كان كذلك لكان أيضا منحلا سيالا قابلا للكون والفساد بمنزلة هذا البدن،فلم يكن باقيا من أول عمره إلى آخره ، فهو إذن جوهر فرد روحانى ، بل هو نور فائض على هذا القالب المحسوس بسبب استعداده وهو المزاج الإنسانى . وإلى هذا المعنى أشير فى الكتاب الإلهى بقوله :

« فإذ سويته ونفخت فيه من روحى » فالتسوية هو جعل البدن بالمزاج الإنسى مستعداً لأن تتعلق به النفس الناطقة ، وقوله : « من روحى » إضافة لها إلى نفسه لكونها جوهراً روحانيا غير جسم ولا جسمانى .

فهذا ما أردنا أن نذكره فى هذا الفصل .

الفصل الثانى

فى بقاء النفس بعد بوار البدن

اعلم أن الجوهر الذى هو الإنسان فى الحقيقة لا يفنى بعد الموت ، ولا يبلى بعد المفارقة عن البدن ، بل هو باق لبقاء خالقه تعالى ، وذلك لأن جوهره أقوى من جوهر البدن ، لأنه محرك هذا البدن ومدبره ومتصرف فيه ، والبدن منفصل عنه تابع له ، فإذن لم يضر مفارقته عن الأبدان وجوده ، إذ البدن موجود باق بعد الموت ، فإذن لا يضر وجود النفس ، و بقاؤه كان أولى ولأن النفس من مقولة الجوهر ، ومقارنته مع البدن من مقولة المضاف ، والإضافة أضعف الأعراض لأنه لا يتم وجودها بموضوعها ، بل يحتاج إلى شىء آخر وهو المضاف إليه ، فكيف يبطل الجوهر القائم بنفسه ببطلان أضعف الأعراض المحتاج إليه ؟ ومثاله أن من يكون مالكا لشىء متصرفاً فيه ، فإذا بطل ذلك الشىء لم يبطل المالك ببطلانه ، ولهذا فإن الإنسان إذا نام بطلت عنه الحواس والإدراكات وصار ملقى كالميت ؛ فالبدن النائم فى حالة شبيهة بحال الموتى ، كما قال رسول الله عليه السلام : « النوم أخو الموت » . ثم إن الإنسان فى نومه يرى الأشياء ويسمعها ، بل يدرك الغيب فى المنامات الصادقة بحيث لا يتيسر له فى اليقظة . فذلك برهان قاطع على أن جوهر النفس غير محتاج إلى هذا البدن ، بل هو يضعف بمقارنة البدن ويتقوى بتعطله ، فإذا مات البدن وخرب تخلص جوهر النفس عن جنس البدن . فإذا كان كاملا بالعلم والحكمة والعمل الصالح انجذب إلى الأنوار الإلهية ، وأنوار الملائكة ، والملأ الأعلى ، انجذاب إبرة إلى جبل عظيم من المغناطيس ، وفاضت عليه السكينة ، وحقت له الطمأنينة ، فنودى من الملأ الأعلى : « يأيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » .

الفصل الثالث

فى مراتب النفوس فى السعادة والشقاوة بعد المفارقة عن الأبدان

اعلم أن النفس الإنسانية لا تخلو عن ثلاثة أقسام : لأنها إما أن تكون كاملة فى العلم والعمل ، وإما أن تكون ناقصة فيهما ، وإما أن تكون كاملة فى أحدهما ناقصة فى الآخر . وهذا القسم الثالث على قسمين: لأنها إما أن تكون كاملة فى العلم ناقصة فى العمل أو بالعكس. فتكون أصناف النفوس بحسب القسمة الأولى ثلاثة كما ورد فى القرآن : « وكنتم أزواجا ثلاثة فأصحاب الميمنة ماأصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ماأصحاب المشأمة » ثم قال : « والسابقون السابقون أولئك المقربون » فنقول : أما الكاملون فى العلم والعمل فهم السابقون ، ولهم الدرجة القصوى فى جنات النعيم ، فيلتحقون من العوالم الثلاثة بعالم العقول ، ويتنزهون أن يقارنوا درن الأجسام ونفوس الأفلاك مع جلالة قدرها ، فهؤلاء هم السابقون الذين هم فى المرتبة العليا. وأصحاب اليمين وهم فى المرتبة الوسطى يرتفعون عن عالم الاستحالة ويتصلون بنفوس الأفلاك، ويتطهرون عن دنس عالم العناصر ، ويشاهدون النعيم الذى خلقه الله تعالى فى السموات من الحور العين ، وألوان الأطعمة اللذيذة ، وألحان الطيور التى تقصر أوصاف الواصفين عن ذكرها وشرحها ، كما قال عليه السلام حكاية عن ربه : « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » ؛ فهذه مرتبة المتوسطين من الناس . ولا يبعد أن يتمادى أمرهم إلى أن يستعدوا للفوز بوصول الدرجة العليا ، فينغمسوا فى اللذات الحقيقية ، واصلين إلى السابقين ، بعد انقضاء دهور تأتى عليهم ؛ فهذه مرتبة أصحاب الشمال ، وهم النازلون فى المرتبة السفلى ، المنغمسون فى بحور الظلمات الطبيعية ، المنتكسون فى قعر الأجرام

العنصرية ، المنتحسون فى دار البوار ، وهم الذين « دعوا هنـالك ثبوراً لاتدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيرا » .

فهـذا شرح أحوال الأرواح البشرية بعد المفارقة عن الأجسام والمهاجرة إلى دار الآخرة ، وقد اتفق على صحتها الوحى الإلهى والآراء الحكمية ، كما شرحناه .

خاتمة الرسالة

فى ذكر العوالم الثلاثة التى هى عالم العقل وعالم النفس وعالم الجسم ، وترتيب الوجود من لدن الحق تعالى إلى أقصى مراتب الموجودات ، على الترتيب النازل منه تعالى ، فنقول :

إن أول ماخلق الله تعالى جوهر روحانى هو نور محض قائم لافى جسم ولا فى مادة ، دراك لذاته ولخالقه تعالى ، هو عقل محض . وقد اتفق على صحة هذا جميع الحكماء الإلهيين والأنبياء عليهم السلام كما قال صلعم : « أول ما خلق الله تعالى العقل ، ثم قال له [أقبل فأقبل ، ثم قال له] أدبر فأدبر ، ثم قال فبعزتى وجلالى ماخلقت خلقاً أعز منك ، فبك أعطى ، و بك آخذ ، و بك أثيب ، و بك أعاقب » ؛ فنقول هذا العقل له ثلاثة تعقلات :

أحدها : أنه يعقل خالقه تعالى .

والثانى : أنه يعقل ذاته واجبة بالأول تعالى .

والثالث : أنه يعقل كونه ممكنا لذاته .

فحصل من تعقله خالقه عقل هو أيضاً جوهر عقل آخر ، كحصول السراج من سراج آخر.

وحصل من تعقله ذاته واجبة بالأول نفس ، هى أيضا جوهر روحانى كالعقل . إلا أنه فى الترتيب دونه .

وحصل من تعقله ذاته ممكنة لذاته جوهر جسمانى هو الفلك الأقصى ، وهو العرش بلسان الشرع .

فتعلقت تلك النفس بذلك الجسم ؛ فتلك النفس هى النفس الكلية المحركة للفلك الأقصى ، كما تحرك نفسنا جسمنا . تلك الحركة شوقية بها تتحرك النفس الكلية الفلكية شوقا وعشقا إلى العقل الأول ، وهو المخلوق الأول ، فصار العقل الأول عقلا للفلك الأقصى

ومطاعاً له ، ثم حصل من العقل الثانى عقل ونفس وجسم : فالجسم هو فلك الثانى وهو فلك الثوابت وهو الكرسى باسان الشرع ، وتعلقت النفس الثانية بهذا الفلك .

وهكذا حصل من كلّ عقل ونفس وجسم ، إلى أن ينتهى إلى العقل العاشر ، ثم حصل منه العالم العنصرى . والعناصر أربعه : الماء والنار والهواء والأرض ، وحصلت منها المواليد الثلاثة وهى المعادن والنبات والحيوان والإنسان الذى هو أكمل الحيوانات ، وهو بنفسه يشبه الملائكة ، ويمكن أن يبقى بقاء السرمد إذا تشبه بها فى العلم والعمل ، ويصير هو أيضا أخس من البهائم والسباع إذا اتصف بأخلاقها داخل الأرض واتبع هواه وكان أمره فرطا . وأما إذا تنزه عن طرفى الإفراط والتفريط فى الأخلاق ، وتوسط بينهما فلم يكن شبقا ولا خامدا فى القوة الشهوانية بل يكون عفيفا ، فإن العفة توسط الشهوة ، ولايكون أيضا متهوراً ولاجبانا بل يكون شجاعا بحسب القوة الغضبية ، فإن الشجاعة تتوسط بين التهور والجبانة . وكذلك له حكمة فى المعيشة ، وهى حسن التدبير فيما بينه و بين غيره ، إما بحسب أهل منزله الخاص وهو يتم بين زوج وزوجه ووالد ومولود ومالك ومملوك ، و إما بحسب أهل المدينة فى المعاملات وفى السياسات إن كان له رتبة فى السياسة ؛ وهذه الحكمة توسط فى تدبير نفسه وغيره دون الجربزة والبلاهة . وهذه الحكمة غير الحكمة التى هى العلم بالحقائق ، فإن تلك الحكمة كلما كانت أشد إفراطاً كان أحسن ، وهذه الحكمة لا ينبغى أن تكون بالإفراط و إلا لكانت جربزة ، ولا بالتفريط و إلا لكانت بلاهة .

وهذه الخصال الثلاث أعنى :العفة والشجاعة والحكمة ، هى التى سميت « عدالة » فالعدالة هى مجموع هذه الثلاث ، فمن اتصف بها وكان أيضا حكيما بالحكمة النظرية التى هى العلم بحقائق الأشياء ، فقد صار كاملا فى العلم والعمل وصار من جملة من قيل فى حقهم : « والسابقون السابقون أولئك المقربون فى جنات النعيم » .

فإن قلتَ فهل يمكن أن تُحَد الحكمة النظرية تحديداً لايمكن أن يكون أقل منه ،

حتى تسعد بها النفس تلك السعادة فيكون من السابقين المذكورين ؟ قلتُ : يمكن ذلك التحديد بالتقرير ، فنقول :

ينبغى أن يكون عالما بوجود واجب الوجود تعالى ، وصفات جلاله ونعوت كماله ، وتنزيهه عن التشبيه ، ويتصور عنايته بالمخلوقات وإحاطة علمه بالكائنات ، وشمول قدرته على جميع المقدرات ؛ ثم يعلم أن وجوده يبتدىء من عنده سارياً إلى الجواهر العقلية ، ثم إلى النفوس الروحانية الفلكية ، ثم إلى الأجسام العنصرية بسائطها ومركباتها من المعادن والنبات والحيوان ؛ ثم يتصور جوهر النفس الإنسانية وأوصافها وأنها ليست بجسم ولا جسمانية ، وأنها باقية بعد خراب البدن إما منعمة وإما معذبة . فهذا القدر من العلم مُجْمَلُه ومُفَصَّله هو القدر الذى إذا حصل للإنسان استسعد بالسعادة التى شرحنا حالها ، أعنى سعادة السابقين الكاملين . وبقدر ماينتقص علمه وعمله انتقص من درجاته وقربه من الله تعالى . وأما الذين قد انحطت رتبتهم عن درجة هؤلاء الكاملين علما وعملا وهم المتوسطون ، فيكونون إما كاملين فى العمل دون العلم ، أو بالعكس ، فهم يكونون محجوبين عن العالم العلوى مدة حتى تنفسخ عنهم تلك الهيئات الظلمانية بتلك الأعمال الردية التى كانوا يعملونها فى حياتهم الدنيا ، وتتقرر الهيئة النورية قليلا قليلا فيتخلصوا إلى عالم القدس والطهارة ، ويلتحقوا بهؤلاء السابقين . وأما الكاملون فى العلم دون العمل من القسمين المتوسطين ، وهم المتنزهون من أهل الشرائع الذين يعملون الصالحات ، ويؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويتبعون الأنبياء فيما أمروا ، ونهوا عنه ، ولكن لا تكون لهم زيادة بسط من حقائق العلوم ، ولا يعرفون أسرارها والأسرار والتنزيلات الإلهية وتأويلاتها ، فهم إذا تخلصوا عن أبدانهم انجذبت نفوسهم إلى نفوس الأفلاك ، وعرجوا إلى السموات ، فشاهدوا جميع ما قيل لهم فى الدنيا من أوصاف الجنة فى غاية الشرف والرتبة ، يلبسون فيها من سندس وإستبرق ، وحلوا أساور من فضة متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريرا ؛ ولكن لا يبعد أن يفضى بهم الأمر إلى

أن يرتقوا إلى العالم العقلى والصنع الإلهى ، فينغمسوا فى اللذات الحقيقة التى لا يمكن أن يشرحها بيان ، ولا يكشف عنها مقال ، ولا يوازيها حال .

وإذ قد وصلنا إلى هذا المقام وكشفنا هذه الأسرار التى عميت عنها أبصار أكثر الناس ، وغفلوا عن أنفسهم وأحوالهم على الحقيقة ، فلنكتف بهذا القدر من الاستبصار للطالبين المسترشدين ؛ جعلنا الله وإياكم من المهتدين إنه هو البر الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله والطاهرين أجمعين .

تمت الرسالة الشريفة فى النفس الناطقة بتوفيق الله

وبمن جوده وكرمه